جاك بيرك وإعادة قراءة القرآن

د. عباس عبد الحليم عباس*

"**إعادة قراءة القرآن** "كتاب للمستشرق الفرنسي ، وعالم الاجتماع المشهور ، الأستاذ في الكوليج دي فرانس جاك بيرك ، ترجمه الدكتور منذر عياشي بعنوان آخر هو "القرآن وعلم القراءة " مع أن ما بين "إعادة القراءة / وعلم القراءة " مسافة لا شك أنّ العياشي يدرك شسوعها ، وبرغم حسن النية ، والله أعلم ، فإنّ ما قدّمه المترجم من عذر لهذا التغيير غير مقبول ، غير أن ما يغفر له صنيعه هذا ، تلك المقالة الجميلة التي افتتح بها الترجمة بعنوان "قراءة الذات للقرآن" في نحو أربع عشرة صفحة نؤجِّل الحديث عنها.

لقد سيطرت فكرة التجديد علي منهجية التفكير عند جاك بيرك ، فهو يرى أنها من أبجديات منهجية الحياة الإسلامية ، جاعلاً حديث الرسول ﷺ " **إن الله تعالي يبعث لهذه الأمة علي رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** " دليلاً علي ذلك ، [1] وأصلاً من أصول التفكير في الحياة المعاصرة التي تدفع المجتمعات العربيَّة إلي عملية تطور جوهرية طالما نادى بها هذا المفكر[2] ؛ الغريب القريب معاً للنهوض بأمة رزحت طويلاً تحت قوى استعمارية إمبريالية ناهبة لخيراتها مفرقة لأبنائها ، شرط أن يكون النهوض المطلوب قائماً علي الموازنة بين المادة والروح في وقت واحد ، وكيف لا ؟ونحن أمام واحد من أكبر تلامذة المستشرق الفرنسي المشهور لويس ماسينيون المعروف بدراساته وأبحاثه الدينية والروحية في حضارة الإسلام ، وأمام ناقد معاصر وباحث متعمق يعد الإسلام ديناً " يحفظ طبيعة الإنسان والطبيعة بشكل عام ، ولا يرغم الإنسان إلا على طاعة القانون الإلهي" [3]. فضلاً عن هذا وذاك ، فإنّ بيرك يمَّثل وجهاً خاصاً من أوجه الخطاب الاستشراقي المعاصر، تمتزج فيه الصداقة الحقة ، والموضوعية الحقة ، فيما يخص التاريخ العربي الإسلامي ، وصورة المجتمعات العربيَّة المعاصرة والاهتمام الشديد بثقافة العرب وتراثهم وخدمة قضاياهم [1].

تأتي دراسة المستشرق الفرنسي بيرك "إعادة قراءة القرآن" مواجهة بين نمطين قرائيين للنص القرآني ، أولهما يتمثل في "قراءة الذات" ، والثاني في "قراءة الآخر"، ولا تعني هذه المواجهة خلافاً بالضرورة ، لأنّ قراءة الذات مؤسّسة علي خطاب منهجي يتسق مع ثقافة هذه الذات وحضارتها ، أما قراءة الآخر فتعكس تركيزاً أساسياً على " أنّ الإسلام ثقافة وعلاقة حسّاسة مع الآخر ، وإدراك شعري للخلق " [2]. وأنّ النص القرآني المؤسَّس لدين الإسلام وحضارته نصّ متفردّ

---

* أستاذ جامعي سوداني مقيم بالسعودية.

[1] انظر مقالة بيرك: نحو علم اجتماع جديد، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، مجلة المعرفة ، ع 37 ، 1965م ، ص 14.

[2] للمزيد انظر : جاك بيرك ،العرب .. تاريخ ومستقبل، تعريب خيري حماد ، الهيئة المصرية العامة ، 1971م.

[3] بدر الدين عرودكي ، مغامرات الأصالة ، قراءة أولي في كتاب جاك بيرك :كلمة العرب للعالم الجديد، مجلة المعرفة ع 162 ، 1975م ، ص 104.

[1] د. عبد السلام العجيلي ،جاك ببيرك الذي رحل ، مجلة المعرفة ، ع 387 ، 1995 ، ص 188.

[2] محمد بنونة ، القرآن وعلم القراءة : المقدمة ، ص 25.

بما يضفيه علي هذه الحضارة من صفات الحركة والتقدم والديمومة . لذلك جاءت إعادة قراءة جاك بيرك للقرآن – وهو الذي أمضى خمسة عشر عاماً يترجم معانيه إلي الفرنسية – جاءت لتعني "تجديد استنباط وتوسيع دوائر الاستنتاج وتوليد دلائل ، وتجنيد نتاج اللُّغة والاجتماع والمنطق والأناسة ، والصوت والبلاغة ، والتركيب والآثار للحصول علي مفاهيم مؤسَّسة لمعالم منظومة إنسانية واعية هادفة "[3]. ومن هنا جاءت ترجمة د. منذر عياشي المعروف بأبحاثه ودراساته اللسانية والدلالية لهذه النَّص من قبيل مناسبة المقال لمقتضى الحال . ولا شك أن قراءة فاحصة للفصل الذي جعله فاتحة لهذا العمل تكشف عن إيمانه العميق بجهود علماء الأصول في مجال العلم بالخطاب وأجناسه والعلم بالنص ومكوناته ، وهى دراسات سارت بنفسها مساراً لسانياً وأسلوبياً وسيميولوجياً يكاد المرء يحسب أنه أمام أحدث ما أنتجته المعرفة الحديثة في إطار "علم القراءة".

لقد حرص العياشي علي عرض اتجاهات البحث الدلالي عند العرب وحصرها في ثلاثة اتجاهات هي :

الأول : اتجاه يبحث في تطوير اللُّغة تبعاً لتطور استعمالها الحضاري.

والثاني : اتجاه يبحث في التطور الاجتماعي وأثره في الدلالة اللُّغوية وذلك من خلال الدرس اللغُّوي القائم علي الخطاب التداولي بصورة نصوص من الحديث الشريف والأدب العربي.

والأخير : اتجاه قائم علي دراسة النَّص القرآني.

وبعد الفراغ من عرض هذه الاتجاهات ينتقل العياشي إلي مسار آخر أسماه (حضارة النص وتحوُّل الشخص) ، ويعني بذلك أنّ حضارة الإسلام قامت علي الخطاب القرآني كأساس أنطولوجي لتكوين الشخصية المسلمة وانتقالها من الحقيقة الشخصية إلي الحقيقة النصية ، وهذا يتطلب من دارس الخطاب القرآني النظر في ثلاثة أنماط دلالية هي (الدلالة التاريخية ، والدلالة النصية ، والدلالة الآنية) وكل هذه الدلالات تتضافر لتؤكَّد أنّ القرآن الكريم يؤسَّس من الكائن البشري " صورة لوجود الشريعة ، ويكون خطابه خطاباً لها ، وإذ ذاك فإنه يتخلّق فيه سياسةً ، واقتصاداً ، وسلوكاً اجتماعياً، وأخلاقاً وتعاملاً " [1] ، والذي يهمّ العياشي هنا ، أنّ القرآن – بوصفه كلاماً – يضع نفسه في قلب التواصل اللساني ، وهذا يقتضي التنبّه (بالأضافة إلى المرسل ، والنصّ) إلي عنصر ثالث ، وهو (المتلقي) مما يجعل الخطاب القرآني خطاباً دالاً علي منشئه وذاته ومتلقيه . والعلاقة التي يمكن لعلماء اللُّغة بحثها هي القائمة بين النص والمتلقي ، تلك التي لخصّها الدكتور منذر في ثلاثة جوانب هي (التلقي السلبي أو الإيجابي ، والتلقي الناقص للنص سيبقى على مثال متلقيه لا علي مثال مرسله ، والتفسير (كتلقي) يظل مرهوناً بظروف ثقافية ، زمانية ومكانية وهذه النقطة الأخيرة بالتحديد تجعل النص القرآني مجاوزاً للتاريخ ، متقدماً للزمان وللظروف الذاتية والإنسانية ، وتؤكَّد أيضاً : ديمومة الحضور القرآني بوصفه نصاً ونسقاً ومنتجاً ثقافياً ، وكذلك انتساب هذا الخطاب إلي قائله تماماً وكمالاً .

---

[3] د. محمود عكّام ، القرآن وعلم القراءة : تقديم ، ص 8.

[1] فاتحة المترجم ، نفسه ، ص 20.

وأرى – من خلال كل ما سبق – أنّ الدكتور العياشي يهدف إلي تأسيس منظور لساني يتعامل مع الخطاب القرآني عبر تأسيس أبعاد معرفية هامة لنظرية خاصة في التلقي اعتماداً علي النظر في الدلالة النصية باعتبارها دالاً رمزياً يتجاوز الأزمنة ويسكن في الآتي على الدوام.

وبعد تقديمين موجزين ، وفاتحة مفصّلة ، يأتي نصّ الدكتور جاك بيرك في أربعة فصول ، جعل الأول بعنوان "مقاربات في البنية " يوضح فيه خطته في هذا البحث والمتمثلة باستبدال المعرفة بالتأمل والمدونة بالتحليل ، لإعادة قراءة القرآن باستخدام مكتسبات العصر المنهجية ، والحساسية الذاتية ، مع الإحاطة مجدداً بطريقة الأجيال السابقة في الفهم ، وهذه الإعادة لا تغض الطرف عن السمة الجليلة للنص القرآني أو عن النداء (الصوتي) للقرآن ، فهذا النص يصعد إلينا مثل أعمدة من الأصوات الموجهة بشعاع الإيمان والسَّلوك والمعتقدات بالنسبة إلي ملايين البشر ، ومع ذلك فإنّ (جاك بيرك) الذي يعترف بأن القرآن نص يوحي بالاحترام ، يقدمّ بحثاً قائما علي الموضوعية النقدية مع أن ثمة خلافاً واضحاً بين تذوق شخص من أبناء القرن العشرين ، وأولئك الذين عاشوا في القرن السابع ممن سمعوا القرآن للمرة الأولي فمن ذا الذي يستطيع أن يعيد إلينا انفعالهم الأول؟ هذا الانفعال الذي لا ينفي حقيقة عقلية تؤكد أن القرآن الكريم "يستطيع أن يوجز نفسه في كلمة واحدة هي وحدانية الله . وأن هذه الوحدة اللغوية الصغرى (أحد) لتُعَدّ وحدة عملاقة للوحدانية الإلهية مثلها النص القرآني في مجموعه الذي اتفقت كل الفرق علي نصه بعد الجمع ، ولم يعترض عليه لا في مجموعه ولا في تفاصيله أحد منهم".

لقد أدّى هذا المنهج بجاك بيرك إلي مهاجمة بعض نواحي المنهج التاريخي للمستشرقين في دراستهم للقرآن ، لأنّها – بالطبع – دراسات أغفلت جانباً مهماً فيه ألا وهو الجانب الدلالي اللّساني الذي ارتضاه بيرك منهجاً مغايراً لإعادة القراءة ، ومثّل لمداخله بدلالات تسلسل تاريخ النزول ، ومواضع السوّر ، والتعدّد الصوتي ، ومواقع الألفاظ في السورة الواحدة ، وغير ذلك مما يكشف " عن نظام نحن لا نملك مفاتيحه بكل تأكيد" ، ثم إنّ (تعدد الموضوعات في السورة الواحدة) يمكن دراستها عبر جهود الدلاليين المحدثين للكشف عن نظام التشابكات ، التي تشبه – كما يرى بيرك – السجاد المغربي ، وما علي الدارس إلا إجراء بعض الإحصاءات لأساليب مثل : السرد ، الخطاب بأسلوب مباشر ، الخطاب بأسلوب غير مباشر ،.. الخ . إن التشابك ، والتقاطعات المتداخلة بين الدائم والظرفي يعكس حالة قصوى من حالات البنية في تشابكها الأمر الذي يدعو إلي ضرورة الإفادة من عدة علوم من أجل ذلك كعلم التصنيف لكشف الإطرادات ، وعلم العروض لكشف العلاقة بين تطورات المعني وحركات الإيقاع اللفظي ، وكذلك فقه اللُّغة من أجل معاينة الآيات ومتغيراتها المحتملة في مسار السورة.

وينتقل بنا بيرك في الفصل الثاني إلي قضية "الزمن في القرآن" وكانت عبارة هيجل من كتابه (ظاهراتية الروح) التي تقول ": الحقيقي هو الصيرورة نفسها " مدخلاً يؤكد من خلاله أن نظام الاتصال القرآني مختلف عن نظام إيصال أي نصّ آخر بكل تأكيد فهو إيصال من الله إلي البشر ، إيصال مطلق ، يربط الوحي عبره بين العظمة الإلهية وحركية الإنسان ، ومن هنا أخذ بيرك علي عاتقه إيضاح معنى الزمن في هذا الإيصال ، وتم تصوّره عبر ثلاثة منظورات :

1- منظور الزمن المعيش.
2- منظور الزمن المسند.

3- منظور الزمن المُسقط (المستقبل) ، وما يهمنا من هذه التصورات مجتمعة هو الوصول إلي فكرة الصيرورة واللاتناهي في الدلالة القرآنية ، لأنهّا دلالة صلحت للماضي، وما زالت صالحة للحياة المعاصرة ، وستظل صالحة لحياة مستقبلية فهي دلالة مستمرة في الزمن.

ويناقش بيرك في الفصل الثالث قضية " المعيار في القرآن" أي القاعدة أو الميزان الذي يرجع إليه سلوك الشخص ضمناً أو علانية ... موضحاً أن الشرع رسم الخطوط العريضة وبعض التفصيلات لعدد من الأحكام ، ثم جاءت السُّنة لتكملة الإيضاح ، وتبع ذلك جهود الفقهاء واجتهاداتهم ، لكنه توقف لنقد مسألة الاختصاص إلي حد المبالغة وإغلاق باب الاجتهاد والمحافظة جهاراً ، والعدوانية إزاء الأشكال الثقافية الأخرى كالصوفية والفلسفة مثلاً ، مع أنّ هذا كله لا ينفي ما للفقهاء من فضل عظيم . ويخلص جاك بيرك إلى وجود أربعة أنواع من المعايير أو القواعد للحكم الفقهي هي:

1- لقواعد الثابتة .

2- قواعد الحالات الخاصة.

3- القواعد الراجعة إلى الظروف.

4- القياس.

وبناءً علي هذه المعيارية في القانون الإسلامي يحكم بيرك بتميُّز هذا القانون وتفوقه على كلٍ من القانون الروماني والبيزنطي وقوانين جستنيان التي دوَّنت قبل عصر الوحي.

كما أنّ القانون الإسلامي القادم من المطلق يعد تطبيقه جزءاً من الطاعة لهذا المطلق من جهة ، كما أنه ينجز الطبيعة ولا يلغيها من جهة أخرى ، وهذا القانون – بتعبير بيرك – ملئ بتعُّدد المتكافئات الحية التي يوقظها النداء القرآني في وعي المؤمن ويبعثها في السلوك الاجتماعي.

ويختم بيرك محاضراته هذه بفصل أخير عن "القرآن واللغة العربية " وهو ما يجعل المناخ مختلفاً اختلافاً جذرياً عن المسيحية التي ليس للغة فيها أي علاقة بالأناجيل ، ويدهشنا جاك بيرك بالموضوعية الفائقة التي تعكس وجهاً ناصعاً لنمط جيد من الاستشراق حين يؤكَّد أنّ اختيار العربيَّة لغة للقرآن عائد لما تقدّمه من جودة فائقة تناسب ما فيه من تفصيل وبيان ، وهما السمتان اللتان ركزت عليهما جهود علماء اللغُّة القدماء ، وقد جاءت أعمال سوسير لتؤكَّد هذا المطلب ، ثمّ سار علماء الصوتيات على المنهج نفسه للوصول إلى الغاية عينها ، بل إن المسألة أقدم من ذلك إذ أرجعها بيرك إلى أرسطو الذي يطلب أن يكون الخطاب الفلسفي خطاباً يتضوّع نوره .

حاول بيرك تعريف لغة القرآن بأنها الصيغة النهائية التي نقلت عبرها الرسالة الإلهية إلى البشر ، وهي صيغة لسانية بكل تأكيد ربطت بين الأشكال الأدبية المعروفة لدى عرب الجاهلية ، فكشفت لهم عن تدفّق شفوي جديد إلي جانب إيقاعات أكثر قصراً، مفصّلة ، ومجزّأة ، ومن هنا نشأت دهشة الوليد بن المغيرة وغيره من العرب ، هذه الدهشة التي ينادي جاك بيرك بضرورة قيام دراسات مختصة تتراوح بين علم الدلالة وعلم وظائف الأصوات لتحديد أبعادها الموضوعية بشكل علمي .

ومن لفتات بيرك المدهشة في الحديث عن العلاقة بين القرآن واللغة العربيَّة ، أنه يفَّسر توقّف لبيد عن قول الشعر بعد إسلامه بإحساسه بأنّ الشَّكل الجديد للرَّسالة قد تجاوزه ، كما تجاوزه مضمونها ، فتوقف إذ ذاك عن نظم الشعر ،

وكذلك كابد معاصروه مثله تحدّي اللُّغة الجديدة ، ومن هنا ظهرت فكرة الإعجاز والرغبة لدى بعضهم بمعارضة القرآن الكريم ، غير أن الواقع العملي أثبت – كما يرى بيرك – أنّ استبدال أي كلمة بكلمة من كلامنا "مستحيل" ، الأمر الذي يفترق عن الشعر حيث يمكن استبدال مفاصل كاملة من الأبيات ، وتعليل هذه الاستحالة سيكون – باعتقاد بيرك – عبر التقدم الحالي والآتي في العلوم الإنسانية والبلاغة والشعر والسيميولوجيا التي تسمح باستكشاف بعض الإمكانات في التحليل وتكون قادرة علي كشف خواص النص القرآني.

وفي الخاتمة خلص بيرك إلى أنّ القرآن الكريم " كتاب مؤسَّس ، وعمود من الكلام يصعد من عمق الأزمنة ، وبيان يهتز بالصور ، وبالأخلاق ، والسلوك ، وأنه فوق ذلك كله ، ليعد كتاباً روحياً في نظر المؤمنين ، فقد كوَّن ولا يزال يكوّن بالنسبة إلى مجموع المسلمين في كل الأزمنة وفي كل البلدان وعياً واقعياً ملازماً لهوية الجماعية".

وبعد ، هذا كتاب بيرك ، أود أن أختم رحلتي معه بشكر عميق للروح العلمية ، والجانب المشرق لنمط آخر لم نعهده من قبل في الدرس الاستشراقي وخطابه الخاص بحضارة الإسلام . كما أود الإشارة إلي هذا الفريق من المستشرقين الذين وقفوا إلي جانب الحق العربي الإسلامي "حضارياً ، وفكرياً ، وسياسياً " في أبحاثهم ودراساتهم التي مثّلت درساً في نزاهة العلم وموضوعية خطابه.

ولا أنسى أن أشيد بالجهد العظيم الذي بذله المترجم د. منذر عياشي في إخراج العمل، والمشاركة فيه بشكل إبداعي يتجاوز الترجمة الآلية إلى التفاعل العميق مع النص بكثير من التعليقات والهوامش والشروحات التي قدّمت للنص فائدة عظيمة بكل تأكيد.